تمثّلات القدس في الثقافة والمقاومة

د. المتوكل طه

كاتب وشاعر فلسطيني

الحديث عن القدس هذه الأيام لا يَسَرّ ولا يطرِب، عندما تزورها فإنّك تشعر بما شعر به أسامة بن منقذ عندما زار القدس وهي تعاني إذلال وحكم الفرنجة. القدس الآن وباختصار ودون الخوض في تفاصيل محرجة ومخجلة، مدينة تُمزّق وتُخترق وتُمحى وتهوّد، وتُغيّر وُتبدّل بوصة بوصة، جدارًا جدارًا، ويعمل المحتل على محاصرة أهلها، بيتًا بيتًا، شابًا شابًا، امرأةً امرأةً، بالضرائب والألاعيب والمؤامرات المخابراتيّة والتهديد بالطرد والتوقيف وعدم منح الأوراق الثبوتيّة وباقي أوراق المواطنة والبقاء، والتي تَكتسِب أهميّة كبرى للصمود اليوميّ واحتمال الحياة في القدس، ولا يكتفي المحتل بذلك، فهو يسهّل كلّ أنواع الجريمة والإنفلات والإنحلال والتفكك الأسريّ والأخلاقيّ، والمحتل يغضّ البصر عن الخلافات العائليّة والقانونيّة وحتى الفصائليّة ما دامت تصبّ في مصلحته ومصلحة بقائه، والمحتل استطاع أن يطرد أو يسهّل طرد المؤسسات الفلسطينيّة ذات الصبغة السياديّة أو الشبيهة بها، واستطاع المحتل أن يغلق أو أن يعمل على إغلاق كلّ المؤسسات الفلسطينيّة والعربيّة والأجنبيّة التي تعمل في مجال الثقافة أو الفن أو التربيّة أو التعليم داخل مدينة القدس. واستطاع المحتل أن يسّور المدينة المقدسة بعدد من الأسوار

التي لم تشـــهدها مدينة في التاريخ من قبل، فهناك أســـوار من الإســـمنت، وهناك أسوار من الأســـلاك الشائكة، و أسوار من المستوطنين، وهناك أســـوار من الشوارع الإلتفافيّة، والأهم من كلّ ذلك، هناك أســـوار من الصياغات الدبلوماسيّة والتواطؤ الدوليّ والدعم القريب والبعيد، تســـمح للمحتل أن يستفرد بالقدس وأن يسوّرها وأن يمتلكها، أو يهيئ له ذلك حتى حين. إنّ السور الدبلوماسيّ الذي يسوِّر القدس ويفصلها عن محيطها وبيئتها وشعبها يقابله، أو يدعمه ويقويه، سور من الألسن المربوطة والقلوب الخاوية ممَّن ارتضوا السكوت رغم انتســـابهم للقدس دينًا ولغة. ورغم ذلك كلِّه، ورغم أنّ المواطن المقدسيّ غير معرّف قانونيًا حتـــى اللحظة بما يفيد مواطنته وامتلاكه لبيتـــه أو مدينته - فهو يحمل ثلاثة أنواع من الوثائـــق الثبوتيّة المتضاربة فيما بينها - إلّا أنّ هذا المواطن المُحاصر والمُهدد والمُلاحـــق بكلّ شي.. هو الذي يهبّ في كلّ لحظـــة ليحمي الأقصى بصدره العاري، وهو من يهبّ لنجدة الكنيسة أو المسجد أو المقبرة أو البيت الذي يحاصره المستوطنون. المواطن المقدسيّ، ورغـــم كلّ المؤامرات التي تحاك ضـــده، إلّا أنّه يحمل على كتفيـــه قدَرَه الثقيل والمقدس.

تشـــهد القدس اليوم أقوى وأعمق هجمة استيطانيّة احتلالية في تاريخها الحديث، إذ يقوم المحتل فعليًا بإفراغ أحياءٍ كاملة داخل القدس من مواطنيها الأصليين، في حي البســـتان والشـــيخ جراح، وفي قلب المدينة القديمة. ويترافق ذلك مع تسمين المستوطنات المحيطة بالقدس من جهة، مستوطنة معاليه إدوميم شمالًا وحتى جيلو جنوبًا، والمحتل يقوم الآن باستباق الزمن وفرض الواقع والوقائع قبل أيّ تسويّة يتم التوصل إليها فرْضًا أو طوعًا، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ أيّة تسويّة سياسيّة ستكون ضمن موازين القوى الحاليّة لصالح المحتل بالتأكيد، وستكون التنازلات والتسويات على حساب الطرف الأضعف.

لا يمكننـــي الآن وصف مدينة القدس التي تُختطف من تاريخها وهويتها، فالأنفاق وعزل الأحيـــاء العربيّة وتطويقهـــا لمنعها من النمـــو والتمدد، ودفع المســـتوطنين في كلّ زاوية وبيت مقدسيّ، عدا الكاميرات التي تراقب حتـــى الذباب في المدينة، والتواجد الشرطيّ والمخابراتيّ الكثيف، والوجود الدائم للرموز الإسرائيليّة واليهوديّة في كل شارع، والحَرف العبريّ الذي يغطي اللوحات واللافتات، وعسكرة الحياة وتسميمها بالفوبيا الأمنيّة التي تراها في كلّ زاوية..يجعل من مدينة القدس مدينة غريبة وبعيدة. أمّا المســـجد الأقصى فإنّ

زيارته مخاطرة، ففي أيّ لحظة قد تفاجأ بسوائب المستوطنين المتطرفين يطوفون في أرجائه، أو تفاجأ باستنفار عناصر الشرطة الإسرائيليّة وهجومهم على هدف ما، وعادة ما يكون صرة تحملها قرويّة فلسطينيّة تسلّلت من أحدى القرى القريبة لتصلي ركعتين في المسجد الأقصى، وقد تفاجأ بأن يوقفك شرطيّ إسرائيليّ بمنعك من دخول بوابات المسجد التي تحوَّلت إلى نقاط تفتيش ومراكز اعتقال.

هذه هي القدس اليوم، لا مسرح ولا مركز ثقافيّ ولا صالة عرض ولا مكتبة، ولا حتى دكاكين عامرة ولا أسواق مزدحمة كما هي عادة القدس منذ أن كانت.

المحتل يستفرد بالقدس، حفرًا ونبشًا وبناءً وهدمًا وإضافة وحذفًا، بدأ ذلك في حارة المغاربة التي اختفت الآن، لصالح الحي اليهوديّ والحائط الغربيّ الذي يدعونه حائط المبكى، والذي هو البراق. أمّا الحفر تحت المسجد الأقصى، فقصة أخرى، إذ ثبت أنّ ما يُقام تحت المسجد الأقصى مدينة توراتيّة كاملة، هذا غير ما ينشر في الصحف والمجلات الدينيّة اليهوديّة المتطرفة عن استبدال الأقصى بالهيكل المزعوم. ورغم أنّ مئة عام من الحفر والتنقيب، وبدعم من صناديق ماليّة ومراكز بحث متخصصة غربيّة تؤمِن بالفكر القياميّ والتدبيريّ، إلّا أنّ ذلك كلّه لم يُسفر عن دليل واحد يدعم أوهام التاريخ وتاريخ الأوهام الذي يؤمِن به هؤلاء.

وأجدني أرغب الإسترسال في الكلام عن القدس وهي تعيش أسوأ لحظات احتلالها، فالفلسطينيون، من مسلمين ومسيحيين، ممنوعون من الدخول إليها أو زيارتها أو التعلم أو التعليم أو تلقي الخدمات الصحيّة، حتى أولئك الذين لهم زوجات وأطفال في القدس، هم ممنوعون أيضًا من الوصول إلى أُسَرهم، ومنذ أن أكمل المحتل بناء السور الإسمنتيّ حول القدس ووضعَ عليه بوابات ونقاط تفتيش..فقد فُتّت النسيج الاجتماعي لقرى كثيرة مثل السواحرة والرام وضاحية البريد وعناتا وأبو ديس والعيسويّة وبيت حنينا ومخيم شعفاط وكفر عقب وقلنديا وغيرها. إنّ أيًا من السور والحاجز ليس مفهومًا أمنيًا إطلاقًا، إنّه مفهوم اجتماعيّ وأمنيّ ونفسيّ واقتصاديّ. إنّ تضييق المكان يعني تضييق الوعي، وإنّ تفتيت المكان يعني ميلاد كتلٍ اجتماعيّة تختلف في تطورها وحتى في أهدافها. الحاجز والسور ونقطة التفتيش ومكعبات الإسمنت لها مدلولات أعمق ممّا يُشيعه المحتل

حول دورها الأمنيّ. المحتل يرغب في تفكيك جماعة الفلسطينيين إلى ذراتٍ صغيرة وكتلٍ بشريّة يسهُل التحكّم بها والسيطرة عليها وضبط نشاطها وتوجهها. إنّ نظام المعازل والبانتوستونات هو نظام عنصريّ قطعًا لأنّه يقوم على محاولة شيطانيّة في تفكيك الجماعة وانحلالها وعدم تطورها من خلال ربط كلّ كتلة اجتماعيّة أو جغرافيّة بالإحتلال ربطًا عضويًا. إنّ شكل الدولة الفلسطينيّة التي يرغب الإسرائيليون بالعمل على إقامتها هي دولة تتكون من ستٍ إلى سبع محافظات يفصل ما بينها بوابات إلكترونيّة وطرقٌ التفافيّة وكتلٌ استيطانيّة، بحيث تتحول هذه الدولة مع الوقت إلى ست أو سبع «دول» متمايزة ومختلفة ومتناقضة. إنّ ما يقوله «الليكود» و«إسرائيل بيتنا» و«البيت اليهوديّ» وباقي الأحزاب يختلف عن هذا الطرح. إسرائيل بيمينها ويسارها لا ترى قيام دولة فلسطينيّة حقيقيّة إلى جانبها إطلاقًا. ومن هنا نفهم أسلوب إسرائيل في إدارة أزمة الاحتلال وليس إنهاء الإحتلال. إسرائيل لا ترى في الشعب الفلسطيني شعبًا متجانسًا ولا تعاملُه على أنّه جماعة لها حقوق سياسيّة، وإنّما بكونه مجردَ أفراد. ومن هنا نفهم أيضًا ما تقوله دائمًا حول التسهيلات والتنازلات وتحسين مستوى حياة الفلسطينيين. إنّها تتحدث عن أفراد لهم مطالب وليس عن جماعة لها حقوق. ولكنّ المحتل عادة ما يكون غبيًا أو واثقًا بنفسه إلى درجة الغباء، فالحركة الوطنيّة الفلسطينيّة ذات العراقة والتاريخ والتجربة، بالإضافة إلى التغيرات العميقة التي تحدث داخل الكيان المحتل ذاته، تجعل من هذه المحاولات مجرد محاولات تؤخّر الإستقلال والحرية.. ولكنها لا تستطيع منع وصولها أو تحققها.

أسوق هذا الكلام كلّه للقول إنّ ما يسمى بشائعة التطبيع تبدو كالنكتة السمجة والسخيفة في خضم هذا الواقع، فهذه الشائعة وتحت أيِّ تعريف لها إنّما تعني أمرًا أقلّ من الخضوع والإستسلام ليس إلّا.

فالتطبيع أيًا كان تعريفه السياسيّ أو الثقافي إنّما هو في حقيقة الأمر على الوجوه التّالية:

إمّا التكيّف أو التعايش مع المحتل بسبب الخضوع له ولمصالحِه ولواقعه الذي يفرضه، أو بسبب عدم القدرة على ردّ المحتل أو كسره أو طرده أو فضحه أو مقاومته، ومن هنا يكون التطبيع أسوأ حتى من الإستسلام، لأنّ في التطبيع نوعًا من النشاط باتجاه المحتل، بحيث يشعر هذا أنّ المطبِّع يقوم بدور ما من تحسين أو تجميل المحتل. إنّ التكيف أو التعايش

مــع المحتل يفترض في المطبع أيضًا أن يُغيِّر أو يعــدّل من رؤيته للمحتل، أو أن يبرر له أو يفــسر مواقفه. إنّ التكيف أو التعايش مع المحتل يعنــي عمليًا العيش مع الحقّ المنقوص والإرادة المنقوصة، ويُترجم هذا المضمار من أنواع التطبيع في الاتفاقات السياسيّة العرجاء والمشــوّهة أو التي تُنقِص من الحقوق ومن الثوابت، كــما ويُترجم هذا النوع من التطبيع مــن خلال المواقف الدوليّة والإقليميّة حيث نرى المطبعين لا يتخذون المواقف التي يجب أن تنســجم مع مصالح الشــعوب، وأســوأ أنواع هذا التطبيع هو ما يحاك في الظلام من اتفاقات وتكتلات محاور سريّة، يكون فيها المحتل مركز هذا الاتفاق وهو المستفيد الوحيد منه. إنّ التكيف والتعايش مع الإحتلال هو شكلٌ صاعق من أشكال الأزمة ومن أشكال الهزيمة أيضًا. وبالعودة إلى الحروب الصليبيّة، فإنّ فكرة مصانعة الفرنجة التي اســتمرت عدة عقود قد شملت ضمن ما أدّت إليه تفتتَ الدولة الإسلاميّة في دويلاتٍ صغيرة بائسة تتقاتــل ما بينها، إلى درجة أنّ الإفرنجيَ كان في بعض الأحيان يلعب دور توحيدها، وهو أمــر وإن كان يبعث المرارة في النفوس إلّا أنّه أيضًا يبعــث الأمل فيها، ذلك أنّ التعايش والتكيف مع العدو عادة ما ينكسر وينتهي، لأنّ المحتل لا يقبل التعايش مع أحد إطلاقًا. فالمحتل الإسرائيليّ بالذات له من العقد النفســيّة المؤسَّســة على عقدة الاضطهاد وعقدة الضحيّة وعقدة التميز والعرق الخاص، ما يُحوّله إلى كيان لا يمكن أن يرى إلّا نفسه، وأن يعبد نفسه، وهو لهذه الأسباب لا يستطيع أن يتعايش أو يتكيف مع أيِّ طرف مهما خضع هذا الطــرف أو أعطى أو أظهر إيمانه وإخلاصه. جزء من هذه النظرة نراه ضمن وعبْر ما قيل عن الشرق الأوســط الجديد الذي تكون فيه إسرائيــل صاحبة الخبرة والتكنولوجيا والتخطيط، ويكون فيه العرب أصحاب المال والأيدي العاملة والأســواق، وهذه فكرة تطبيعيّة سمجة بامتياز، لأنّ إسرائيل فيها تعرض خدماتها من دون التخلّي عن احتلالها أو عن رؤيتها الكليّة للمنطقة وشعوبها، وهي تعرض خدماتها بغية أن تكون جزءًا من المنطقة بقوتي المال و الســلاح، ومن الغريب أن مَنْ يعرض الســلام الاقتصاديّ في التسعينيات رجل يدَّعي أنّه من اليســار الصهيونيّ، وأن مَنْ يعرض السلام ذاته في العام 2009 رجل يدّعــي أنّه من اليمين المتطرف.. لنلاحظ أنّ لا فرق إطلاقًا في التيار العام الصهيونيّ، فهو تيار لا يرى في المنطقة وشعوبها سوى أدوات لبلوغ أهدافه ليس إلّا.

وجه آخر من وجوه التطبيع يتمثل في تلــك المنظومات الفكريّة والإجتماعيّة التي تحملها

وتروّج لها عادة طواقم الكمبردور الثقافيّ الممولين جيدًا، وفي الحقيقة ليس هناك مسافات أو فجوات بين هذا الكمبردور الثقافيّ وبين الرؤية السياسيّة الكليّة للمُموّل، ولكنّ هذا الكمبردور الذي سرعان ما يمتلك أو يؤسِّس منظَّمة غير حكوميّة يكون لها أذرع إعلاميّة وتأثيرات سياسيّة ولمعانٌ صحفيٌّ وإعلاميٌّ، سرعان ما يبدأ في إطلاق تلك المنظومات الفكريّة والإجتماعيّة، فمدينة القدس مدينة تعايش، وهي مدينة لله فقط، وهي بدلًا من أن تكون محتلة نراها تمتلئ بالنساء المعنفات أو متعاطي المخدرات، تمامًا، كتلك الحملة التي وزّعت الكتب على حواجز الإحتلال في الضفة، مع احترامنا للنوايا طبعًا.

هذا الكمبردور الثقافيّ المُمَوَّل عادةً ما يستند إلى القول بأنّ الإستدراج الإنسانيّ في العدو هو أمرٌ صحيح، وأنّ محاولة الإلتقاء بالمحتل في منتصف الطريق هي الحلّ، وأنّ التشارك أو الجدل أو الحوار سيؤدّي إلى نتائج مرجوّة. إنّها الأفكار ذاتها التي طُرحت في الهند وجنوب أفريقيا وفي أنغولا وفي الجزائر. لكنّ المشكلة أنّ هذه الأفكار محوّلة من الغرب ذاته، مع احترامنا وتقديرنا للنوايا والرؤى الحسنة. المشكلة هنا أنّ هذه الأفكار تأتي عن ضعف وعن قلة ثقة بالشعوب وقدرتها على الفعل والإبداع. أكثر من ذلك أيضًا، إنّ هذا الكمبردور الثقافيّ - ومهما حاولنا تجميله -يعمل في اتجاه آخر خطير، إنّه يقوم بمهمة التثبيط والتيئيس والتفكيك والخلخلة الفكريّة والإجتماعيّة وحتى السياسيّة، ولا نبالغ في ذلك أبدًا، ومع أخذنا بعين الاعتبار أنّ سيادة الدول قد تمّ انتقاصها والمس بها من خلال ميلاد هيئات دوليّة عالية وقوانين عالميّة تفرض على الدول الإيمان بها والعمل بها، مثل حقوق الإنسان والبيئة والجندر.. وما إلى ذلك، فإنّ الكمبردور الثقافيّ والسياسيّ، وبالطريقة ذاتها، يلعب دورًا في عملية إنقاص سيادة الدول. وبما يخص موضوعنا هنا، وهو القدس، فإنّ كثيرًا من الهيئات والمؤسسات لا يمكنها العمل من دون التسيق مع مؤسسة أو هيئة شبيهة لها في الجانب الإسرائيليّ، وهي أيضًا لا تستطيع العمل من دون الإثبات بأنّ لا علاقة لها بدعم مَنْ تسمّيهم إرهابيين أو الإيمان بأطروحاتهم.

التطبيع هنا يتخذ اسم مؤسسة قد تُعنى بأمرٍ بعيد عن الثقافة أو الفن، ولكنّها جزءٌ من تلك المنظومة الخطيرة الهادفة إلى أن تكون الرقيب والعين والأداة القادرة على المسّ أو الإصابة، ولا نقول هنا شيئًا يُفهم منه أنّنا ضدّ مؤسسات المجتمع المدنيّ، وعلى الإطلاق من ذلك لأنّ مؤسسات المجتمع المدنيّ هي مؤسسات تقوم على المبادرة والتمويل الذاتيّ،

والأهم أنّها تقوم عــلى الرغبة الحقيقيّة في خدمة المجتمع إلى جــوار الدولة، لا أن تكون مماحِكة للدولة أو رديفًا لها أو بديلاً عنها في اللحظة المناسبة كما يخطط المحتل عادة.

إنّ مثل هذا الكمبردور الثقافيّ هو المســؤول عن ترويج أفكار ونشر برامج اللقاءات على المستويات المتعددة التي تبدأ من معسكرات الشباب وتنتهي بعقد المؤتمرات الكبيرة التي يشــارك فيها كبار المثقفين والسياسيين، وهو المسؤول عن إنتاج الأعمال الفنيّة والسينمائيّة التي يُقَدَّم فيها الآخر المحتل مقبولًا وإنسانيًا، وهو المسؤول عن إنتاج الخطاب الإعلاميّ الذي يتحوّل فيــه الآخر المحتل إلى وجهة نظرٍ أخرى ليــس إلّا، هذا الكمبردور المموَّل يكتشــف فجأة أنّ المحتل أو الآخر مجرد رأي معاكــس لا غير.. ونعتاد بالتالي على إعلام يقتل المقاومة بسبب الموضوعيّة والمهنيّة.

وهــذا الكمبردور قــادر على الهجوم وقادر عــلى الدفاع وقادر عــلى التجنيد وقادر على الإصطفاف وقادر على التلميع وقادر على أن يشكِّل رافعة لمن يقف معه، وقادر أيضًا على أن يعتّم على مَنْ لا يقف معه أو يؤيده، وهو مدعوم مِنَ الآخر المحتل ومَنْ يقف معه، فإذا به محمي جيدًا، حتى أنّ الدول فضلاً عن الشعوب لا تستطيع الإقتراب منه.

يلقى هذا الكمبردور الدعم الكافي من النخب السياســية المتورطــة فعليًا في الإتفاقات المنقوصة أو المشــبوهة، وتتحول العلاقة ما بين الطرفين إلى علاقــة خاصة إلى درجة أنّ هذا الكمبردور عادة ما يتلقى مكافأت مختلفــة مثل الجوائز والتوزير والتمثيل واللمعان الصحفيّ والإعلاميّ. وتتحوّل البلد برمتها إلى أن يقودها مثل هؤلاء، أو أن يكون هؤلاء هم البلد أيضًا. إنّ نجاح الآخر أو المحتل، أو كليهما، بتكوين نخبة مثل هذه في أيّ مجتمع يعني منع تحقق حلم هذا البلد. ولم يكــن غريبًا أبدًا أن تحتوي الخطة التي وضعتها وزارة الخارجيّة الأميركيّة في عهد بوش الإبن ضمن بند صريح ينصّ على تســمين النخبة المثقفة في البلدان العربيّة المؤمِنة بالأفكار والتوجهات ذاتها، وليس غريبًا على الخارجيّة الأمريكيّة العمل في ميدان الثقافة والفن والأدب، فالفضائح المدوّية في الخمســينيات والســتينيات وتورّط أدباء كبار بها ما تزال في البال.

الكمــبردور الثقافيّ هو الذي يقــف وراء فضائيات تُعــدّل الصور النمطيّــة وتغيّرها،

والكمبردور الثقافيّ يقف وراء صحف ومجلات وأفلام، ووراء مؤسسات ومواقف واتجاهات، في فلسطين، وفي القدس، جزء من هذا، أكثر أو أقل.

أخيرًا:

إنّ خطورة التكيف تكمن في احتمالنا جميعً، وتحمُّلِنا، فكرة ضياع المدن..العادة والتعوّد عدو يجب قتله، التطبيع هو جزء من العادة والتعوّد.

خطاب القدس وتأييد المعنى

هل استطاع العربُ تحويلَ أكبر مَظْلمَة تاريخيّة، وأعظم كارثة حلّت بالشعب الفلسطينيّ، إلى ذُخْرٍ نفسيّ لا ينتهي، ومُلكٍ أخلاقيّ يُدينون به العالم كلّه؟!

وَهل حوّلنا كارثة الطرد والإبعاد إلى حادثٍ كونيّ يُؤَرَّخُ به لبداية جديدة؟! أم أنّ نكبتنا كانت ذروة حملة غربية استعماريّة جديدة انطلقت في بداية القرن التاسع عشر، ولم تنته حتى هذه اللحظات؟! وبكلمات أشدّ وضوحًا وأكثر إيلامًا، ألم تكن النكبة ومن ثمَّ سقوط القدس والنكسة ذروة انتصار الغرب وفكرِه وآلته وجندِه علينا نحن العرب والمسلمين؟!

هذه الحملة الجديدة التي استفادت من كلّ الحملات السابقة، لم تَستعمل الحديد فقط، وإنّما استعملت المنهج الفكريّ والأدبيّ أيضًا، من أجل إقناعنا بأنّ تاريخنا مجرد حروب عشائر، وأنّ حضارتنا مجرد رحلة أخرويّة، وأنّ مساهمتنا في التاريخ البشري ليست إلّا مساهمة المترجمين والنقلة.. هي حملة أرادت وما زالت تريد أن تقنعنا بتفاهة تاريخنا وهامشيته وعدم حضوره، وهي حملة ما زالت تريد تلقيننا، ليس المنهج فقط، وإنّما استخلاصاته أيضًا.

وتحت هذا المدخل، نُعيد السؤال: هل استطعنا الإحتفال والإحتفاء بالنكبة على مستوى الخطاب الثقافيّ؟، وهل نقلنا هذه الكارثة من تاريخيتها إلى وجدانيتها، ومن محليّتها إلى عالميتها، أو من ظروفها السياسيّة إلى أبعادها الكونيّة؟! هل عمّمناها على الوعي لتتحوّل إلى نُدبة أخلاقيّة في جبين الضمير الإنسانيّ الصامت؟! وأخيرًا هل اعترف العالم بذلك؟! أم أنّ العَالَمَ لا يعترف للمهزوم حتى بممتلكاته الروحيّة والوجدانيّة؟! وهل الضعيف لا يملك حتى إقناع نفسه بحزنه ودموعه؟!

إنّ خطابنـــا الثقافيّ العربيّ والإســـلاميّ مدعوّ إلى تأبيد هذه الكارثة، لأنّ طرد الشـــعب الفلسطينيّ من أرضه واحتلال بيت مقدسه كان وما يزال يعني موت تاريخ وبداية تاريخ آخر. وفي كلّ مرّة كانت تســـقط فيها القدسُ بيد غازٍ أو مغامـــر أو مجنون، يتغيّر التاريخ ويتغير مســـار الحضارة، إذًا فهذه كارثة سرمدية ! وإنّ ذهـــاب خطابنا الثقافيّ إلى مناطق العتمة والعبث والتغريب والتطبيع..معناه طمس الحادث الأهم والكارثة الأعظم. وإذا كان خطابنا الثقافيّ اليوم يفتعل الحروب ويختلق الإصطفافات، ويؤلّف أوهامًا أو حقائق ليبراليّة وأصوليّة، أو دعوات مجتمعيّة متعددة ومتضاربة، فإنّ ســـبب ذلك كلّه هو ضياع القدس، الـــذي أتى معه بكلّ موبقات الحكم والحكّام، وبكلّ تشـــوّهات المجتمع وبنيته الفوقيّة.

الهزيمة لا تأتي دفعة واحدة، إنّها تتراكم حتى تفيض بأبغض وأسوأ النتائج. والنصرُ تطهير وتطهّر. عمليّة النصر هي الأتون الذي يذيب ما ترهّل وما خبُث وما زاد عن الحاجة.

وإنّ خطابنـــا الثقافيّ العربيّ مدعوٌ اليوم إلى تحديد أولوياتـــه وتحديد أعدائه، فالعدو ليس الخصم الداخليّ أو المختلف مهما بلغت درجـــة الإختلاف معه، وهو بالتاكيد ليس مَن لم نتفق وإيّاه على مسألة فقهيّة هنا أو تفصيل هناك، وليس هو مَن لم يشاطرنا رؤيتنا الفكريّة. والصديق ليس هو مَـــن يلوّح لنا بالجنّة على الأرض، وليس هو مَن يريد إقناعنا بحريّات ضيقة تقوم على الطائفة أو العِرق، وليس هو أيضًا مَن يموّل مشاريع تخدمه أصلًا وتدمّرنا بالتدريج الممل.

إنّ عدونـــا واضح وصديقنا كذلك. ولكن من قـــال إنّ عملية تحديد الأعداء والأصدقاء سهلة في ظل هزيمه تغطّينا جميعًا؟.

إنّ خطابنا الثقافي اليوم، وارتباط معظمه بالمؤسســـة الرســـميّة، يجعـــل منه ظِلًا باهتًا غير أصيل أو مقنع، ولهذا يدخل في معارك متوهّمة، ويســـاجل على أراضٍ بعيدة وتختلط عليه وجوه الأعداء والأصدقاء.

إنّ هذا الخطاب الذي تقع عليه مسؤوليّة التنمية والتحرر والتحرير، والذي لا يستطيع الفكاك من ازدواجيّة دوره الإجتماعيّ ودوره التحرريّ، يجد نفسه، كلّما تقدم الزمن،

يبتعد أكثر فأكثر عن الإنشغال بالقضية المركزيّة الأم، بسبب هزائم النخب السياسيّة والإقتصاديّة، وانجرارها وراء مخططات أكبر منها، أو انسجامها مع الإشتراطات المريبة.

مرّة أُخرى تواجهنا الهزيمة التي تدعونا إلى الإنغماس في العبث واللاجدوى، أو التهالك على حلول فنية وثقافيّة أسهل كالنصوص التي تصطدم بالحائط. ولعل نظرة واحدة على ما يُنشر أو يُبث سيُرينا حجم الفجيعة من جهة، والهزيمة من جهة آخرى.

إنّ نكبة فلسطين ونكستها وضياع قدسها، لم تقع على كاهل الشعب الفلسطينيّ فحسب، بل إنّ الحملة الغربيّة الجديدة توزّعت على منطقتنا العربيّة، فجعلت في كلّ قطرٍ نكبة، وفي كلّ أُمّة جديدة مُغايرة نكسة، وانشغل كلُّ اصحاب نكبة بنكبتهم، ونكسة بنكستهم.. وها هم يُفتتّون ما تم تقسيمه ويذهبون بنا إلى العدميّة ! ولهذا فإنني أرى أنّ تأبيد الكلام عن مفهوم النكبة أو الإقتلاع أو الإحتلال هو تأبيد الإتهام لعقليّة الغطرسة والعنجهيّة والعنصريّة.

إنّ نكبتنا ونكستنا جميعًا ليست بضياع الأرض فقط، وإنّما بالتأخر والتخلف والتصحر والتوترات العرقيّة والإثنيّة والمذهبيّة والفجوات ما بين النخب والجماهير وتراجع العلم والمعرفة والنشر، وتواري الخطاب الثقافيّ الفوقيّ إلى مناطق الظل والمُعتم والذاتيّ والإيروتيك والهمس، وإلى العُري والتغريب والعدميّة.

إنّ تعميم مفهوم النكبة أو النكسة وتأبيده وتحويله إلى ندبة أخلاقيّة في جبين العالم لا يعني أبدًا الدموع أو التذكر أو التعلّق برموز النوستالجيا المرضيّة، بل مواجهة الهزيمة وأسبابها ومقوماتها ودراستها، والتخلّي عن أدوار الفرسان والحالمين. وكأني لا أتحدث هنا عن واقعيّة المهزومين أو منطقهم الطيّع المرن ! بل أتحدث عن واقعيّة القراءة والتحليل، وواقعيّة الحلول المؤسَسة على إرادة صادقة بتجاوز الهزيمة ومسبباتها وشروطها. الواقعية ليست عيبًا إلّا إذا كانت ذريعة لجعلنا ضحايا سلبيين، أو إذا كان منشَؤها قلبَ جبان أو فكرَ متعاون.

إنّ تعميم مفهوم النكبة بكلّ مستوياتها على العالم، وجعله مفهومًا يخجل منه أولئك الذين يريدون تعليمنا الديموقراطيّة والجِنْدر وحقوق الإنسان، ويربك أولئك المؤمنين بنظريات الأعراق وسباق الديانات وصراع الحضارات، يعني أن نقوم جميعًا بتحويل ذكرياتنا إلى أفعال حقيقيّة، وتحويل دموعنا إلى خطط، وقلب مفاهيمنا الثقافيّة من مجرد المشابهة والتقليد، لنيل الرضى، إلى أهداف تنبع من واقعنا لتخدمَ واقعنا.

المهزوم أو المنكوس يقلّدُ فلا يجيد ولا يصيب ولا يصل، والمنكوب المهزوم يفقد أهدافه، ولا يحترم حتى ذكرياته ولا يقدّسها. ولكنّنا في فلسطين، ذلك الشعب الصامد المرابط، لا يعيش ذكرياته فقط، وإنّما عليه أن يواصل صنع تاريخه حتى يتجلّى كاملًا على أرضه، أي أن يعيش تاريخه ويكتبه في آن واحد.

إنّ الخطاب الثقافيّ- مهما تعدّدت أشكاله ومضامينه - لا يعني شيئًا من دون الجهد والعمل، لأنّ الثقافة، في تعريفها الأخير، هي العمل والتفاعل، بهدف تكريس الثوابت وحراسة الأحلام والتطلعات الكبرى والقيم المطلقة، وتأصيل مدارك الأجيال الطالعة بكلّ ذلك، عبر المؤسستين الرسميّة والأهليّة، وما يُنتجه الفرد والمجتمع من خطابٍ وأفكار ومعارف.

وإنّ خطابًا ثقافيًا اختار الوقوف على الرصيف، فإنّه بالتأكيد لن يستطيع إدراك الماضي وتحديد المخاطر والانتصار عليها، لأنّه ببساطة توقّف عن العقل والعمل. وخطابنا الثقافيّ العربيّ والإسلاميّ - مع استثناءات قليلة - يشبه حالتنا المنكوبة، ولا يختلف عن واقع نكستنا كثيرًا. بمعنى أنّ فعل الغرب الإستعماريّ، الهادف إلى بقائنا في حالة ضياع وتشظيَة وعدميّة وجهل واستلاب وتغريب وصِدام، قد نجح إلى حدّ كبير، ليس لأنّه استراتيجيّ ومتواصل وشموليّ ومدعوم فحسب، بل و لأنّنا لم نخلق النظريّة القادرة على خلق فعل أكبر لاستيعاب ومواجهة تلك الإستراتيجيّة، وأعني على الأقل، خلق فعل ثقافيّ فكريّ يكون قادرًا على تعرية المؤامرة ومكوناتها وأطرافها، وتأصيل وإنهاض عوامل البقاء والوحدة والهويّة والإنتماء والحضور، على أرض التعدديّة الطبيعيّة التي تُثري، وعلى مبدأ التجريب والحداثة المتّصلة بالأصل والجذر، ومن منظور النقد باعتباره حالة دائمة

وهدفًا تصحيحيًا، بعيدًا عن الإعدام أو الإتهام أو الوقوع في مقولات الإستشراق، أو تبني الأفكار الجاهزة أو المعدّة سلفًا.

غير أنّنا نرى أنّ حالة الوعي العام المخزون في شوارع محيطنا العربيّ، والآتية من ثورة الإتصالات والمعرفة والقمع والإحتلالات والنهب، قد ارتفع منسوبها، وصرنا نلاحظ بعض الإشارات التي توحي بأنّ شعوب أمّتنا باتت تدرك المعادلة جيدًا، وبأنّ نتوءات إنفجارها تُنبئ بأنّ حدثًا هائلًا سيشهده الشارع العربيّ، ولو بعد حين.